الإسلام والغرب

أبو الحسن علي الحسني الندوي

مؤسسة الرسالة

الطبعة الثانية

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ - ص.ب ٧٤٦٠ برقياً، بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الرسالة

جامعة اكسفورد من كبرى جامعات بريطانيا ومن أقدمها. فقد أنشئت قبل نحو سبعة قرون، ولا تزال تحتفظ بمكانتها وأهميتها إلى اليوم، يؤمها من يختارها من طلاب العلوم العصرية، وقد كانت خالية من وجود قسم للدراسات الإسلامية، أو مركز إسلامي، فأراد بعض أساتذتها أن يكون في الجامعة أو بجنبها مركز من هذا النوع يزود الراغبين في الدراسات الإسلامية بما يساعدهم في تحقيق رغبتهم في هذا المجال، وبذلك برزت فكرة الاستشارة في هذا الصدد والوصول إلى نتيجة هادفة.

جاءت الدعوة إلى سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي لزيارة اكسفورد، وللمساهمة في تأسيس مثل هذا المركز وكان سماحة الشيخ يترصد ويتمنى أن تتاح له فرصة يتحدث فيها إلى نخبة من قادة الفكر ورجال التوجيه والتربية في مكان رئيسي في الغرب في صراحة ودقة، ويفضي إليهم بحقائق قلما واجههم بها مسلم شرقي في بلد غربي، وكان يعتبر أكبر كرامة له وتوفيق أن يكون متبعا - ولو مرة في عمره - لأسوة الرسول الأعظم ﷺ في رسائله التي أرسلها إلى ملوك العالم - وفي مقدمتهم إمبراطور الدولة البيزنطية الرومية هرقل الأول - يخاطبه فيها بالآية القرآنية «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»(١).

فلما جاءته هذه الدعوة من مركز ثقافي موقر كجامعة

---

(١) آل عمران - ٦٤

اكسفورد رأى ذلك تحقيق أمنية وقرر أن لا يضيع هذه الفرصة السانحة التي هيأها الله للدعوة.

ولما تحقق لسماحته أن موضوع إنشاء مركز إسلامي في اكسفورد موضوع غير مشبوه وأنه سليم وهادف، استجاب للدعوة، وقد كان سعادة الدكتور خليق أحمد نظامي - رئيس قسم التاريخ في جامعة على كره الاسلامية حالياً، ونائب رئيس هذه الجامعة سابقاً - وسيطا في توجيه الدعوة إلى سماحة الشيخ الندوي وهو صديقه ومن أكبر المؤلفين والباحثين في التاريخ الإسلامي، وقد درس الموضوع نجله السيد فرحان نظامي في جامعة اكسفورد، وكان مساهما في تحضير فكرة إنشاء المركز الإسلامي مع أساتذة الجامعة، في مقدمتهم الأستاذ/D. G.BROWNNING.

سافر سماحة الشيخ الندوي يوم ٢١/ ٢٢/ يوليو إلى انجلترا، وكان يرافقه كاتب هذه السطور، وبدأت الجلسات واستمرت إلى يوم ٢٤/ يوليو وانتهت على قرار

إنشاء مركز إسلامي في اكسفورد في مكان وهبته الجامعة لمثل هذا المركز في وسط من كلياتها، ويكون المركز مركزاً للدراسات الإسلامية على المستوى العالمي، ويكون مستقلا بأمره لا يتصل بجامعة اكسفورد ولا بغيرها من المؤسسات أو الحكومات أو الأحزاب إلا بصلة التعاون العلمي والثقافي، ويكون تابعاً لمجلسه التأسيسي الذي يختار ثلث أعضائه من رجالات العالم الإسلامي المسلمين، أما الثلث الباقي فيعين بعضهم الجامعة كممثلين لها ويختار بعضهم المجلس التأسيسي من غير المسلمين. وتم الاختيار في المرحلة الأولى لأربعة أعضاء، وهم سماحة الشيخ الندوي، والدكتور الأستاذ خليق أحمد نظامي من الهند، والأستاذ بروهي وزير الأمور الدينية السابق في حكومة باكستان، والأستاذ عامر علي عمير الأمين العام لجامعة ستقوم في عمان.

وشكلت لجنة لموضع مشروع الدستور من السادة الأستاذ بروهي والأستاذ نظامي والأستاذ عامر كما تم تعيين الدكتور فرحان مدير المركز، والأستاذ الدكتور

براوننغ سكرتير المركز.

وقد كان الدكتور براوننغ طلب من الشيخ الندوي أن يعد بحثاً للاحتفال العام الذي سيعقد في ٢٢ / من يوليو تمهيداً لفكرة هذا المركز وإنارة للفكر العام، واقترح أن يكون موضوعه «الإسلام والغرب» وقد أعد الشيخ هذا البحث في آخر أيام رمضان حرصاً على أن ينتفع بهذه الفرصة أكبر انتفاع، ويحقق عن طريقه الأمنية التي خامرت نفسه من مدة طويلة وملكت عليه فكره، وأن يكون هذا المقال موضع دراسة وتفكير لعلماء الغرب وأساتذة الجامعات وقادة الفكر في أوربا وأمريكا، فأعده على عجل في ثلاث لغات، الانجليزية والعربية والأردية.

وعقد الاحتفال في إحدى قاعات الجامعة يوم الجمعة في ٢٢ / من يوليو في الساعة العاشرة صباحاً وقد حضره لفيف من أساتذة الجامعة، والمشتغلين بالبحث والدراسات والعاملين في مجال العمل الإسلامي من

المسلمين، ولما انتهى الدكتور براوننغ من كلمة الترحيب وشرح الفكرة التي أعدها كتابياً، ترجى من سماحة الشيخ أن يتحدث لدقائق باللغة العربية قبل أن يقرأ بحثه بالنص الإنجليزي، فقد كان في الصفوف الأمامية عدد من المثقفين العرب والمشتغلين في السفارات العربية، ورجال السلك السياسي، فتقدم الشيخ وألقى كلمة باللغة العربية الفصحى، خلاصتها كما يلى.

قال بعد الحمد لله والصلاة على سيد الرسل خاتم الأنبياء ﷺ، سادتي: يسعدني ويشرفني أن أتحدث إليكم في هذه المناسبة الجميلة باللغة العربية التي كانت الوسيلة الوحيدة قبل قرون لنقل التراث العلمي القديم من علوم الحكمة والرياضة والطب من أسبانيا الإسلامية العربية إلى هذه الناحية من العالم، وهي لغة الإسلام الرسمية العالمية العلمية، وكان من أثمن الهدايا التي أتحف بها الأندلس والعالم العربي الغرب هو المنطق الاستقرائي (Indutive Logic) الذي حل محل المنطق القياسي والاستخراجي (Deductive Logic) الذي كان سائدا

على الغرب، وقد حول هذا الطريق من البحث الذي كان يعتمد على التجربة والملاحظة، التيار الفكري في الغرب برمته، وإليه يرجع الفضل في تقدم العلم والصناعة والعلوم التجريبية التطبيقية في أوربا[1]، وقد أتى علينا حين من الدهر كان الحكام والأساتذة من الغرب يخاطبوننا في بلادنا الشرقية والإسلامية بلغتهم الانجليزية، وها نحن الآن نخاطبكم اليوم في بلدكم باللغة العربية.

«وتلك الأيام نداولها بين الناس»

وقد عرض البحث الذي أعده الشيخ وتلقاه الحاضرون بانصات وعناية وتأمل، وتلته بحوث أخرى

---

(١) يقول ليون Gustave Lebon

«ينسب الناس إلى باكون Francis Bacon قاعدة التجربة والملاحظة (المنطق الاستقرائي) وهما الأصل في أساس البحث العلمي الحديث، بيد أن الواجب أن يعترف اليوم أن هذه الطريقة كلها هي من مبتدعات العرب».

أعدها الأستاذ بروهي والأستاذ عامر علي عمير، وانتهت الجلسة في سكينة ووقار، ولذة واعجاب، وتوجه الحاضرون المسلمون إلى صلاة الجمعة في جامع قريب.

لقد كانت إقامة مندوبي هذا الملتقى في أبنية الجامعة، وبخاصة كلية مرتن، وعقدت جلسات الملتقى فيها، وأقيمت مآدب على شرف الضيوف كانت إحداها من نائب رئيس الجامعة وثلاث من عمداء ثلاث كليات للجامعة، وقد سنحت الفرصة لتبادل الآراء وتبادل المعلومات بين المجتمعين في الملتقى والحاضرين في المآدب وهم من الأساتذة أصحاب الاختصاصات العلمية في الجامعة، وكانت الزيارة مفيدة، وامتازت بأن المشتركين جميعاً نوهوا بضرورة تقريب أذهان الأجانب لفهم الإسلام فهمًا سليمًا، ومن أصحاب الاختصاصات الحقيقيين بصورة ممتازة عن بحوث المستشرقين، وأن يكون المركز محل اهتمام من المسلمين وموضوع استفادة الجامعة في تزويد طلبتها الراغبين في الدراسات الإسلامية.

قضى سماحة الندوي ثلاثة أيام في جامعة آكسفورد ثم زار عدداً من بلدان انجلترا، منها لندن، وليدس، ولستر، وديوزرى، وبولتن ونيني تن، كما زار جلاسجو باسكات لندا، وخطب سماحته في أكثر هذه الأماكن في جوامعها ومراكزها الإسلامية على طلب من أهلها.

وانتهت الزيارة ٣١/ يوليو حيث عاد قافلا إلى الهند ووصل إليها في أول أغسطس ليباشر مسؤلياته في دار العلوم ندوة العلماء الذي هو رئيسها.

لقد كانت محاضرة الشيخ الندوي في جلسة افتتاح الملتقى محاضرة موثرة وقيمة، ألقت ضوءاً واسعاً على ضرورة اهتمام غير المسلمين لفهم الإسلام من مصادره الأصيلة، وبمعرفة خصائص الإسلام الممتازه عن غيرها من الأديان السماوية، ولفت نظر الحاضرين إلى أن الأنجليز بصفة خاصة كانوا في موضع تسهل لهم معرفة الإسلام وخصائصه العظيمة التي كانت كفيلة بانقاذ الحضارة الغربية من اتجاهها غير السليم الذي عرض

العالم للنهاية الأليمة السريعة، ولكن الانجليز قصروا في ذلك مع توفر الوسائل وسنوح الفرص بحكم سيطرتهم في بقاع واسعة من العالم الاسلامي ، كما قصر أبناء هذه البلدان الاسلامية في الحوار المؤثر المفيد مع الانجليز في مجال تقريب قيمة الإسلام ودوره القيادي البنائي إلى عقولهم.

محمد الرابع الحسني الندوي
أمين «المجمع الإسلامي العلمي»
ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)

٢٥ / شوال سنة ١٤٠٣هـ

الاسلام والغرب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه اجمعين.

سادتي! أشكركم قبل كل شيء على دعوتكم إياي لحضور هذا الاحتفال الذي طلب للبحث في موضوع منير مثير كموضوع «الاسلام والغرب» ويقوم في رحاب جامعة «أكسفورد» (OXFORD) إحدى جامعات العالم الموقرة العتيقة المعروفة، وذلك ينم عن روح الاستطلاع والريادة الفكرية في المنظمين لهذا الاحتفال، ويحمل أهمية رمزية لها مدلولها الكبير، وأشكر الدكتور د - ج - برونِنغ (Dr. D. G. Brownning) وزملاءه بصفة خاصة إذ وجهوا إلي الدعوة لحضور مثل هذه المناسبة والحديث فيها، واللقاء مع السادة الفضلاء والطلاب الأعزاء.

سادتي إن أول شعب وأول بلد من الشعوب والبلدان الأوربية اتصلا بالعالم الإسلامي في أواخر

القرن الثامن عشر هو الشعب البريطاني، فقد بقيت بريطانيا الزعيمة الأولى للحضارة الغربية ورائدة التعليم الغربي والعلم والتكنالوجية الغربية، مظهراً من مظاهر القوة والانجازات الضخمة في عدد من الدول الإسلامية، لا سيما شبه القارة الهندية ومصر، ردحة طويلة من الزمن، وبغض النظر عن طبيعة هذا البقاء وشرعيته - فهو أمر خارج من نطاق هذا البحث - كان من المعقول المتوقع - عقلياً ونفسياً - أن تعنى بريطانيا - حكومة وشعباً - بأقوى الديانات السائدة في مستعمراتها وأكثرها حيوية ونشاطاً وتأثيراً، وتهتم بدراستها واكتناه روحها وجوهرها، الديانة التي قامت في الماضي بأكبر دور ثوري وبنائي في تاريخ العالم الطويل الممتد على آلاف السنين، وخلفت طابعاً واضحاً خالداً على الحضارة الانسانية والمجتمع الانساني، بل يصح ان نقول: إنها أنقذت الحضارة الإنسانية والمثل العليا، من الإبادة الكاملة، ووهبتها قسطاً جديداً طويلاً من الحياة، إنها أنشأت قوة خيرة صالحة لمقاومة القوى الهدامة، ومكافحة الشر والباطل، وكانت ترى ذلك هدف وجودها، وغاية

ظهـورها، إنها بدلا من أن تهلك الحرث والنسل ـ كما فعلت بعض القوى العسكرية والقيادات الجبارة الماضية ـ حولت تيار الحياة، وأرغمت التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً، ولم يكن في ضلال جهودها وتضحياتها أن تقطع الحضـارة البشرية أشسواطها وتواصل رحلتها إلى الأمام فحسب، بل أصبح لها ذلك سهلا ميسوراً، إن هذه الـدعـوة التي ظهـرت في القرن السابع المسيحي وهذه الجهـود العـظيمـة التي قامت بنشر عقيدة التوحيد على نطاق عالمي واسع لم يسبق له في التاريخ البشري مثيل، وأعـادت إلى الإنسان كرامته واعتباره، وأرست دعائم المساواة والأخوة الإنسانية في العقول والنفوس من جديد وأثبتت أنها حقيقية بديهية لا تحتاج إلى تأمل عميق، انها أعادت إلى المرأة حقوقها وكرامتها الضائعة، وأقامت صلة قوية متينة بفاطر الكون، وعاطفة قوية مستحكمة لحب الله وخشيته، وعبادته واستعانته، وعقيدة راسخه، وإيماناً ثابتـاً لم يوجـد له بهذه السعـة في تاريخ الـديانـات و الروحانيات نظير ولا مثيل، إنها أنشأت رغبة جامحة في الأعمال الخيرية والنظر إلى السلالة البشرية كعيال الله.

وإلى خدمتها ونفعها كعمل يتقرب به إلى الله، وأثارت ظماء ونهامة للعلم، وخدمته ونشره، وولوعاً بالكتابة والتأليف، حتى تكونت مكتبة عالمية من المستحيل استعراضها، فضلا عن الإحاطة بها، ويصعب العثور على نظيرها في الشعوب الماضية والتاريخ القديم، هذه كلها حقائق تاريخية لا يسع أي إنسان مثقف جحودها أو الشك فيها.

كان كل ذلك يقتضي بطبيعة الحال أن تقوم في كل بقعة من بقاع بريطانيا مراكز علمية وفكرية لدراسة القرآن الكريم، والسيرة النبوية - على صاحبها ألف ألف صلاة وتحية - دراسة مجردة مخلصة، وأن توفر وسائلها وإمكانياتها بأريحية وسخاء، وأن تشجع دراستها الموضوعية (Obgective) التي تتحرر من رواسب الحروب الصليبية الملموسة وغير الملموسة، والأهداف والمصالح السياسية والدعوية والدعاية، وتتحرر من مركب الاستعلاء (Superiority Complex) الذي يكون - في غالب الأحيان - نتيجة السيطرة السياسية، والحكومة القوية، والذي يحول بين الدارسين وبين

التأملات الحيادية والدراسات المنصفة لثروة الشعوب والبلدان والمغزوة الضعيفة، العلمية، ومعتقداتها ومسلماتها، والتقدير الصحيح لقيمتها وأهميتها، ولا أريد هنا أن أقلل من قيمة قسم اللغة العربية، وقسم الدراسات الإسلامية (Islamic Studies) في الجامعات، وقسم حضارة غرب آسيا ـ (West Asian _ Culture) وكلياتها، والحط من شأنها والاستهانة بقيمتها، ولكن القضية كانت أعمق من هذا وأوسع بكثير، وكانت تتطلب عمق النظر ورحابة الصدر، وسعة الأفق، والإخلاص والنزاهة، أكثر من الدراسات الخاضعة للمصالح المادية والاقتصادية.

ولكن الواقع أنه لم يكن في هذه المدة التي تمتد على أكثر من قرن، بين بريطانيا ومستعمراتها، بل بين الشرق والغرب، إلا اتجاه واحد (One Way Traffic) أعني أن الدول الغربية لم تعامل الدول الشرقية ـ حتى ولو كانت تملك ثروة عظيمة من المعرفة والحضارة ـ إلا معاملة المنح والإعطاء والتعليم والتثقيف، وتربية رجال يخدمون مصالحها، وصياغتهم صياغة خاصة، ولم تشعر بحاجة

إلى أن تقتبس منها شيئا، وتستفيد بدورها، وما من شك أن لضعف الشرق و «مركب النقص» (Inferiority Complex) الموجود فيه و «دهشة الفتح» التي أصيب بها، ولفقده الثقة بنفسه والاعتداد بذاته، تأثيرا في موقفه، ولم تكن فيه - إذ ذاك - أثارة من الشعور بالرسالة السامية، والشجاعة الايمانية، والروح الدعوية، التي دفعت في أوائل القرن السابع المسيحي إنسانا - بأبي هو وامي - كان يجلس على الحصير في إحدى مدن الجزيرة العربية (التي كانت تسمى «يثرب» ثم أطلق عليها اسم المدينة) وقد أكرمه الله تعالى بمنصب النبوة والرسالة - أن يوجه إلى ملكين من أكبر ملوك الأرض حينئذ، كانا قد توزعا العالم المتمدن المعمور كعقار موروث، وهما امبراطور المملكة البازنطينية الرومة هرقل (٦١٠-٦٤١م) وكسرى إيران خسرو أبرويز الثاني (٥٦٠-٦٢٨م) رسائل تحمل إليهم دعوة صريحة مكشوفة إلى التوحيد الخالص والدين الحق، وجاءت في مفتتح الرسالة الأولى الآية القرآنية الكريمة.

«يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم

أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» (آل عمران ـ الآية ٦٤).

ومن الممكن جداً أن يكون يوم أملي هذه الرسائل لم توقد في بيته نار، ولم يدخل جوفه طعام، ولم يكن في بيته زيت للسراج (ولم يكن ذلك غريباً أو نادراً في منزله) وأن يكون ـ على العكس من ذلك ـ عبيد أولئك الملوك الذين وجهت إليهم هذه الرسائل و عبيد عبيدهم، وخدمة خدمهم مصابين بمرض التخمة، وتكون كلابهم المدللة تأكل من أطايب ما لا يتيسر لكثير من الناس المحترمين.

ثم لما وصل أتباع هذا الدين، والدعاة إليه إلى قادة جيوش هذه البلاد وعظماء الدولة، وأركان المملكة، وسألوهم: ما الذى جاء بكم؟ كان جوابهم الوحيد الحاسم:

«الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها و من جور

الأديان إلى عدل الإسلام[1]».

إنني لا ادهش لقولهم: «ولنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده» إذ أنهم كانوا الدعاة الأولين إلى التوحيد، والمتزعمين الوحيدين للدعوه إلى الحرية الانسانية، ولكني أدهش لقولهم« ومن ضيق الدنيا إلى سعتها» إنني ادهش أن هؤلاء البدو الفقراء الذين كانوا في جهد من العيش، قد لا يجدون ما يقيم صلبهم ويسد رمقهم، كيف واجهوا تلك الشخصيات الحاكمة التي كانت تحكم مئآت الآلاف من الأميال في الأرض والتي سيقت إليها وتكدست حولها وسائل الترف والبذخ، بهذه الكلمة العجيبة القارعة: إننا نخرجكم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا، فما كان ذلك الضيق، وماذا كانت تلك السعة ياترى؟! إن هذه الكلمة تدل على أنهم كانوا لا يعتبرون هؤلاء الملوك والأمراء أصحاب سعادة ونعمة تتحلب لها أفواههم، وتتقطع وراءها أنفاسهم، بل كانوا يعتبرونهم جديرين بالرحمة والرثاء، والاستهانة والازدراء،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٣٩، طبع بيروت ١٩٦٦م.

لانهم كانوا ـ في نظرهم ـ أسرى المادية و النفس، وعبيد العادات والتقاليد، والمثل والأعراف المنحوتة المصطنعة، عالة على أناس أقل منهم شأنا، وأحط منهم مكاناً، وكانوا يرونهم كطائر مغرد جميل حبس في قفص من ذهب هو دنياه التي فيها يطير.

إن الشباب الأذكياء الطامحين الذين كانوا يرحلون من البلاد الشرقية الأسيوية ـ التي كانت تحت السلطة البريطانية، أو تحت إدارتها ـ إلى الجامعات البريطانية للتعليم العالي، كان النادر فيهم من يتصف بالاعتماد على الله والاعتداد بالذات، الذي يبعث زملائهم وأترابهم من الطلاب ـ إن لم يكن يبعث أساتذتهم ومربيهم ـ على دراسة الدين الذين ينتمون اليه وفهم الأمة التي يرتبطون بها ، ولا يدع لمعان الحضارة الحديثة وبريقها، يخطف أبصارهم، ويخلب ألبابهم.

وسنكون جائرين ومقصرين إذا لم نذكر بهذه المناسبة بعض الشباب المثقفين بالثقافة العالية الذين اقتطفوا من المناهج الدراسية المقررة في الجامعات البريطانية السائدة في الهند، والذين اتخذوا اللغة الانجليزية وسيلة لابداء

آرائهم وعرض أفكارهم، ونالوا الاعجاب والثناء من أبناء هذه اللغة وأساتذتها، واعترف عدد من علماء هذه البلاد وباحثيها بأنهم زادوا في معارفهم، وغذوهم فكرياً، كان من بينهم الباحث الأديب السيد أمير علي الذي يقول المستشرق آسبرن (Osborn) عن كتابه (Sprit of Islam):

«إن هذا الكتاب يستحق الاعجاب والثناء، ويدل أسلوبه على ان مؤلفه متمكن من اللغة الانجليزية تمكناً تاماً، وقليل من أصحاب هذه اللغة من يجاريه في أسلوبه، إن هذا الأسلوب برئ من تلك العيوب التي قل من يخلو منها من المثقفين الهنود بالثقافه الانكليزية، فهنيئاً لمسلمي الهند ان يكون فيهم أفراد يحتلون هذه المكانة المرموقة».

والشخصية الثانية هي شخصية الدكتور محمد اقبال، الذى ترجم المستر نكلسن البروفيسور المعروف في جامعة لندن، كتابه(أسرار خودي ورموز في خودي) إلى الانكليزية، وقد ذكر في المهرجان المئوي الذي عقد بمناسبة مرور مئة سنة على وفاة الدكتور محمد إقبال في

ديسمبر عام ١٩٧٧م بلاهور، تحت إشراف الحكومة الباكستانية، أن ما ألف حول الدكتور محمد اقبال، في مختلف لغات العالم من كتب ورسائل، لا يقل عددها عن ألفين، وفيها عدد كبير ألف باللغة الانجليزية.

وتحضرني في هذه المناسبة اضطراراً ذكرى زعيم الهند البعيد الصيت، القائد العصامي لحركة التحرير، ومشعل هذه الحركة في الجماهير، المسلم المتحمس الشجاع، وأديب الانكليزية البارع، والصحافي القدير، والخطيب المصقع الساحر(مولانا) محمد على جوهر مدير(COMRADE) الصحيفة الانكليزية السيارة، الذى كان خريج جامعتكم أوكسفورد هذه، الذي كان يذكر مع اسمه دائمًا (آكسن)«OXON» ولكن هؤلاء الأفراد القلائل ليسوا بالنسبة إلى أولئك الشباب الأذكياء أصحاب الصلاحية والكفاءات الممتازة، الذين يتجاوز عددهم الآلاف ـ الذين كانوا يرحلون من الهند إلى انكلترا للتعليم العالي، ويعودون منها بشهادات جامعية الى الهند ـ إلا أفذاذاً لا يجاوز عددهم الأصابع، وبهذا الإجراء الذي كان في اتجاه واحد، لم يلتفت كلا البلدين

الى الإسلام كما كان يتوقع منهما، فلم تكن بريطانيا في جانب، حيث كان يفسد آلاف من الشباب المسلم للدراسة من مستعمراتها الآسيوية الواسعة، وفرنسا في جانب أخر، حيث كان يرد مئات من الشباب المسلم من بلدان شمال إفريقيا التي كانت تحت سلطتها وانتدابها، لم يكن لهما أن يعيرا الإسلام شيئا من عنايتهما واهتمامهما، لأن هؤلاء الشباب الوافدين كانوا خلواً من ذلك الحماس والاعتماد على النفس والروح الدعوية الثائره التي كان يتمتع بها العرب الأميون في القرن السابع المسيحي، مع أن التفاوت الذي كان بينهم و بين بلاد الروم والفرس المتمدنه الراقية، كان أعظم وأوسع بكثير مما كان بين شباب الهند ومصر وشمال إفريقيا، وبين البلدان الغربية، فقد كانت عند هؤلاء الشباب فكرة عن الحضارة الغربية و الرقي الغربي في بلادهم، ولم تكن بلادهم أحط شأناً وأكثر تخلفاً من الجزيره العربية في القرن السابع المسيحي.

إن الوضع الذي تقع مسؤولية على الفريقين لم يهيء فرصة لدراسة الإسلام والتأمل فيه من المستوى الذي

كان يستحقـه ويليق به، والذي لا يستغني عنه مجتمع واقعي ناشئي، وحضارة واقعية ناشئة، وعندما بدأ العلم الحديث والتكنالوجية الحديثة في منتصف القرن التاسع عشر رحلتهما السريعة، كانت لهما الفرصة الذهبية لتستفيدا من الدين ـ الذي كان الإسلام ممثله الحي القوي ـ الأهداف الصحيحة لاستخدام العلم والطاقة، والعواطف النبيلة لخدمة الإنسانية، وأن تقتبسا منه القدرة على تملك زمام النفس وكبح جماحها، وأن تقتبسا منه منهجاً فكرياً، ونظرية عالمية لاحترام الإنسانية، والنظرة إلى الشعوب والأمم السامية على القومية الضيقة والوطنية العمياء، وأن تحترزا من هذه المسابقة المجنونة بين البلدان والشعوب في التظاهر بالقوة والطاقة الذرية، التي أشرف بها العالم على الانتحار، والنار والدمار، وأن يقرع آذان سادة الشعوب والبلاد وقادة الحضارة النداء العلوي الخالد:

«تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين».

(سورة القصص الآية ٨٣).

إنه لو كان العلم والتكنالوجية الحديثة يرافقهما خشية الله في السر و العلن، واحترام الإنسانية، ولو كانت الأهداف الكريمة الصالحة مقرونة بالوسائل القوية، والإمكانات غير المحدودة، ولو كانت عاطفة التعاون على البر والتقوى (التي لا يعطيها إلا الدين الحي القوي) مكان عاطفة المسابقة المجنونة، لكانت الدنيا غير الدنيا، ولكان العالم أجمع يعيش كأسرة واحدة مترابطة متوادة، بدلا من هذه الكتل الشرقية والغربية المتناحرة، التي تكاد تؤدي عداواتها وحزازاتها بالحضارة الإنسانية، بل الأجيال البشرية كلها إلى الهلاك الذريع، ولكن رقي العلوم المادية والتكنالوجية الحديثة والسياسة، الحر المنطلق من كل الضوابط والقيود، أحدث خطرا كبيراً لانتحار العالم بخنجره نفسه، كما يقول الدكتور محمد اقبال:

«إن هذا الفكر المارد الذي فضح قوى الطبيعة وأفشى أسرار الكون، انقلب اليوم برقاً خاطفا، ورعداً قاصفاً، يهدد عش الغرب ووكره، وحصنه ومعقله[1]»

---

(١) «روائع اقبال» لصاحب المقال.

سادتي! اننا لا بد أن نعترف ونقرر بكل صراحة أن حضارتنا الجديدة والقيادة الفكرية المعاصرة، أخفقت إخفاقاً ذريعاً في القيام في إعداد الأفراد الذين ينهضون بمسئوليات المجتمع الإنساني، وتربية السلوك الانساني إن العلم الحديث يستطيع أن يقتنص أشعة الشمس، ويعد أسرع الوسائل وآمنها لرحلة الفضاء، ويبلغ بالإنسان إلى القمر والكواكب، ويستخدم الطاقة الذرية في المشروعات الهائلة والإنجازات العظيمة، ويزيل الفقر من البلاد، ويصل بالإنسان المعاصر إلى ذروة التطور والرقي، ويعلم شعباً جاهلا بأسره، ويثقف أمة أمية بحذافيرها، إن هذه الفتوحات والانتصارات لا يسع أي إنسان أن يقف منها موقف المنكر الجاهد، ولكن القيادة الفكرية الحاضرة عاجزة تماماً عن إنشاء أفراد صالحين مؤمنين، وهذه هي أكبر هزائمها وخسائرها، ولأجل ذلك تضيع جهود قرون وتذهب هباءاً منثوراً، ويصاب العالم بالفوضى واليأس، ويزول اعتماده على العلم واقتناعه به، ويخاف أن تنطلق في العالم حركة رد فعل عنيفة وثورة مدمرة ضد العلم والمدنية، فقد حول الأفراد الفاسدون

هذه الوسائل والأدوات البريئة الصالحة، وسائل فاسدة ومعاول هدم وتدمير، انه لا يمكن أن تعد سفينة صالحة من ألواح منخورة فاسدة، فاذا ركبت بعضها مع بعض وصنعت منها سفينة، انقلبت رأساً على عقب وعادت صالحة، وأن يكون اللصوص وقطاع الطريق، لصوصاً وقطاع طريق، فاذا كونوا لهم هيئة أو جماعة فهي جماعة مقدسة من الحراس وأصحاب المسئولية، إن الأفراد الذين قدمتهم لنا القيادة الفكرية الجديدة فارغون من الإيمان واليقين، مجردون من الضمير الإنساني، محرومون من الحاسة الخلقية، جاهلون لمعنى الحب والإخلاص، غافلون عن كرامة الإنسان وشرفه ومكانته، إنهم لا يفهمون غير اللذة والجاه ولا يعرفون غير القومية والوطنية، إن مثل هؤلاء الأفراد في نوعيتهم وصلاحيتهم، سواء كانوا حكاماً في الأنظمة الجمهورية، أو مسئولين عن النظام الاشتراكي لا يقدرون أبداً على إيجاد مجتمع فاضل، وبيئة آمنة، وجماعة مؤمنة تخشى الله في السر والعلن، ولا يمكن الثقة بهم والاعتماد عليهم في مصير خلق الله، والأسرة البشرية الكريمة.

سادتي! في مثل هذة المرحلة العصيبة الدقيقة التي لا يتعـرض فيها بلد واحد من بلدان العالم فحسب، بل تتعرض الحضارة البشرية بأسرها، لخطر الفناء والدمار، لا تُغْني الجهود العادية المتحفظة، ولا يُغْني العاملون في مجال التعليم والاصـلاح على الـدرب السليم، إنـه لا يمكن أن ننكـر فضلهم ودورهـم في الظروف العادية، ولكن في مثل هذة الظروف غير العادية، التي بلغت فيها الحياة مفترق الطريق بين الموت والحياة، لا بد من جرأة خلقية وتضحيات جسيمـة ومخـاطـرة ومغـامـرات على المستوى العالي، ولا بد من وجود أفراد عباقرة (Genius Men) أولئك الرجال الذين نزعوا الحضارة الانسانية في كل عصر من بين فكي الأسد، سامحوني أيها السادة إذا قلت: إن الغرب الذى ولد في الماضي شخصيات عبقرية نابغـة في العلوم العمـرانية والصنـاعـة والعلم الحديث والسياسة ونظم الحكم، غيرت بجهودها خريطة العالم، واعـترف العـالم كله بفضلهم وتفوقهم ولم يرى بداً من الاستفادة من جهودهـم وتجاربهم، إن هذا الغرب يخيم عليه منــذ زمـن طويل الجمــود، إنــه يخلو من تلك

الشخصيات العبقرية التي يفتقر إليها لقيادة الحضارة الإنسانية والمجتمع الإنساني الجديد، وتحويل وجهة العالم والتكنالوجيا، من الهدم والتدمير إلى البناء والتعمير، وإيجاد القوة الخلقية التي تضبط النفس وتلجم الشهوة لحماية المجتمع من الفوضى والفساد، وتوحيد القوى المتصارعة والكتل المتناحرة، إنه يخلو من دور الأبطال وشجاعة الرسل والأنبياء، التي هو أحوج اليها من كل يوم مضى، لقد قال أحد العلماء المختصين في العلوم الغربية و الذى طالت إقامتة في الغرب قبل أكثر من نصف قرن ، الدكتور محمد إقبال عن الحضارة الغربية والبيئة الغربية

«إن نور الحضارة باهر وشعلة حياتها ملتهبة وهاجة، ولكن ليس فى ربوعهـا من يمثل دور موسى، فيتلقى لهداية والالهام ويبدد باليد البيضاء الظلام، ولا من مثل دور إبراهيم عليه السلام، فيحطم الأصنام ويحول النار إلى برد وسلام، إن عقلها الجريء يغير على ثروة الحب، وينمو على حساب العاطفة، إن عماليقها وثوارها قد طغى عليهم التقليد، فلا يخرجون ـ حتى في

ابتكارهم وثورتهم - عن الطريق المرسوم والدائرة المحدودة[1]».

إنه لابد - الآن - لحماية الحضارة الإنسانية وحماية الغرب نفسه - الذى يعد بريطانيا فرداً كريماً محترماً من هذه الأسرة ويحمل تاريخاً رائعاً من قوة الإرادة وعلو الهمة والذكاء والطموح - من الجهود العلمية والفكرية الثورية الواقعية المخلصة والجهود الجريئة المغامرة التي تنفخ في هذه الحضارة المحتضرة والمجتمع المحتضر روحاً جديدة من الحياة، وتسوهلهما من جديد للبقاء في العالم وتبرر وجودهما واستمرارهما، ولا شك أن جامعات هذه البلاد ومدارسها العلمية ومراكزها الفكرية، والمؤلفين وأصحاب الأقلام وقادة الفكر، يستطيعون أن يقوموا في هذا المجال بدور كبير، واعتقد أن مشروع «المركز الإسلامي» الذي يدرس في هذه الجامعة والذي دعى له هذا المجلس، يقوم في موضعه المناسب وموعده المناسب، وسيكون حلقة في هذه السلسة ومعلمة في الطريق، هذا هو الأمل

---

(١) «روائع اقبال» لصاحب المقال.

الـذى ساقني ـ رغم ضعفي وزحمة أشغالي ـ إلى هذه الجامعة، ودفعتني للحضور في هذه المناسبة الكريمة.

وأخيرا أشكركم على هذا التكريم وهذه الثقة التي وضعتموها في، وأدعو الله تعالى أن يوفق هذا المركز لأداء مهمته على أحسن ما يرام، وأن يحقق تلك الآمال التي علقها به القائمون عليه والمرحبون به والمقدرون له.

والله ولي التوفيق.